

معالم الرؤية المنهاجية في مقارنة إشكالية فهم القرآن الكريم

بين النص والواقع

د. عزيز البطيوي

جامعة ابن زهر بأكادير - المغرب

تقديم

جعل الله تعالى القرآن الكريم خطابه إلى العالمين؛ تبياناً وهدى ورحمة وبشرى لمن أسلم وجهه لشرعته ومنهاجه، محسناً في تلاوته وترتيله، مقتفياً بصائرهِ في الاجتماع والواقع الإنساني الهادية سبل السلام. وقد أنجز القرآن الكريم رسالته العالمية الأولى حين قدم للإنسانية في القرن السابع الميلادي منهجية معرفية في تعقل الواقع وفهم العالم متجاوزاً كل الأطر المفهومية والمرجعية والمعرفية التي اقترفتها عقول الفلاسفة وأحبار الدين فكان بحق إعلاناً عالمياً ربانياً بالدخول في عالم المنهاجية المجددة للفهم والمنهج والتصور والتنزيل. وليس غريباً على خطاب إلهي يتسم بالإطلاقية والهيمنة والخاتمية والكلية المستوعبة لكل آفاق الخلق والكون والحياة والمتجاوزة لها أن تنزل هداياته اللامتناهية نحو تحقيق الرشد الإنساني العالمي ويبقى جاهزاً لتجاوز كل الأزمات والأخلال التي تصيب العقل والواقع متى تم إحكام عملية التجهيز المنهجي والمعرفي لرؤيته الكونية التوحيدية. من هنا تنشأ علاقة النص القرآني بالواقع البشري، إذ أن من أكثر القضايا لبساً وإشكالاً قضية فهم القرآن بين مقتضيان النص ومتغيرات الواقع. وتشكل الرؤية المنهاجية في مقارنة هذا

الإشكال الموجه للوعي والتعقل التأويلي للنص القرآني في علاقته بالواقع، وتكون الحاجة اليوم مصيرية وحاسمة أمام ما تعرفه الحضارة العالمية من أزمات واختلالات منهجية ومعرفية على مستوى الاجتماع والعمران والعلوم والمعارف ويهدف تحقيق أعلى درجات الاستمداد من القرآن الكريم.

وإذا كان العقل المسلم أثناء تفاعله مع النص القرآني في علاقته بالواقع المتغير قد اهتدى إلى أجزاء من معالم المنهجية القرآنية فأنجب علومًا ومعارف أنشأت واقعا تحققت فيه خيرية الأمة وشهادتها العالمية إلا أن هذه العلوم التي نشأت حول النص والواقع تحولت-في لحظات تاريخية من إنتاجها للمعرفة- إلى علوم تتجاهل تحولات الواقع متخذة من النص القرآني شواهد على مقولات جاهزة صار معها نصًا مغلقًا صبت عليه الأفهام تحيزات المعرفية ونزعاتها المذهبية فصار القرآن عضين وأقصى من حركة الحياة العامة وتوقف العقل المسلم - مع التنويه ببعض الجهود التي سعت إعادة الأمر إلى نصابه- عن السير نحو استئناف واستكمال المسيرة المنهجية في ضبط الرؤية الكونية التوحيدية القرآنية. وهذا يدل على أنه بقدر ما ينبغي التنويه بتلك الجهود المنهجية الأولى في الكشف عن مكونات النص القرآني واتخاذها القرآن منشأ وأصلا حاكما في تحديد الرؤية الإسلامية لفهم الواقع وضبط علاقاته التداولية والدلالية فإنه لا يضيرنا في الوقت نفسه أن نكشف عن الأزمة المنهجية والمعرفية والقيمية التي ارتهن لها العقل المسلم كما تظهر ذلك المدونة التفسيرية أو الإرث التفسيري للنص القرآني الذي لم يوسع في غالبه النظر في مقاصد القرآن في الهداية والاستخلاف والعمران، وانشغل بإعادة إنتاج نفس المعطيات المعرفية دون نقدها ومراجعتها ترديدا لأقوال المتقدمين من أهل التفسير وانفصالا عن سياقات الأمة التداولية وما تحيط بها من ظواهر اجتماعية وثقافية وسياسية التي كان من مهام المفسر أن تأتي تلاوته للآيات تعبيرا حيا عن ملبساتها. ولعل القارئ للكثير من التفاسير لا يكاد يشعر بفرق مهم فيما بينها

على مستوى الاستمداد المنهجي للإجابة عن مشكلات الأمة وقضاياها رغم تباين الزمان والمكان، وتوارد المتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية على واقع الأمة، وتضخمت الدراسة الدلالية للألفاظ مع قصور فيها إلى درجة الوقوع في شكلائية بيانية على حساب الدراسة التداولية الحضارية القائمة على عملية تأصيل الفهم المنهجي وترشيده وتفعيله في توجيه حركة الفعل الحضاري للأمة في اتجاه استئناف رسالة القرآن العالمية. ومما عمق أزمة الخطاب التفسيري للنص القرآني "أن التفسير بصفته شرحا لكتاب الله بقي عريا من أي سياق نظري نقدي له نسقه الذي يحكمه، ومنطقه الذي يقننه ويقعده"⁽¹⁾ وهنا تنقدح في الذهن تساؤلات إشكالية نصيغها على الشكل الآتي: ماهي معالم الرؤية المنهجية؟ بأية مداخل ومرتكزات منهجية يمكننا مقارنة إشكالية فهم علاقة النص القرآني بالواقع الإنساني؟ كيف تتحقق الهداية المقاصدية الكلية من القرآن في تفاعل العقل مع نصوصه وفق متغيرات الواقع نحو الأقوم قيميا ومنهجيا ومعرفيا وبيانيا؟ كيف أسهمت مناهج مفسرين وما ارتبط بذلك من سلطة المعرفة والتاريخ وبرز مناهج حديثة في فهم النص وتأويله في ضمور هذه الرؤية المنهجية وفسح الطريق أمام فهم عمقت الهوية بين قارئ القرآن فلم تتحقق هداياته المنهجية والمعرفية والسننية المرجوة؟ وكيف يمكن أن تفضي بنا معالم هذه الرؤية المنهجية إلى صياغة نموذج تفسيري (باراديغم) بوعي منهجي معرفي تكاملي يكون قادرا على تجديد آليات علوم تدبر النص القرآني في علاقته الهادية بتجديد مناهج علوم التسخير المنتظمة وفق إحدائيات الواقع؟. ويجدر بنا أن نؤكد على أن الحديث عن الرؤية المنهجية القرآنية في مقارنة إشكالية النص والواقع هو إسهام في عملية استئناف العطاء اللامحدود للقرآن الكريم وأن تكون هذه الرؤية بما هي دعوة إلى قراءة مجددة للنص قادرة على بعث الروح الإبداعية في الأمة وقيامها بدور الشهادة على العالمين.

(1) - أبجديات البحث في العلوم الشرعية، فريد الأنصاري، ص 156 .

في فلسفة الرؤية المنهاجية لمقاربة إشكالية فهم القرآن الكريم بين النص والواقع:

تتجلى مقصدية هذه الرؤية المنهاجية في توجيه الفهم لمسارات الواقع الإنساني وتداولياته المتغيرة بالمنهجية المعرفية القرآنية استجاباً لهدايات القرآن المجيد في ترسيخ منظومة المقاصد النازمة والقيم الحاكمة، وندعي أن هذه الفلسفة هي المؤهلة للتمكين للراهنية المتجددة للنص القرآني وقدرته الإنجازية على إعادة صياغة الاجتماع الإنساني المعاصر دون تجاهل لمعطيات هذا الأخير وخصوصياته. من هنا ضرورة إعادة النظر في القول ببضع مئات من الآيات المتعلقة بالأحكام التشريعية التي تضخم بصدها الفقه الفروعى على حساب الفقه الحضارى العمراني، حيث توسع العقل الفقهي في الفقهيات والشرعيات وقصر في الاجتماعيات والإنسانيات والكونيات، وهذا الأخير هو الفقه الذي لم ينجز بعد إلا بأقدار لا ترقى إلى اهتمام الوحي ودعوته إلى أعمال النظر فيه، وهي مسؤولية العلماء مهندسو سلوك المجتمع وأفكاره ونظامه المعرفي، وهذه إشارة إلى إمكانيات العلماء وقدراتهم وفعاليتهم في إحداث التأثير المطلوب داخل المجتمع. ففي الوقت الذي ألفت فيه العديد من المجلدات الفقهية التي تعالج مسائل الطهارة وأحكام الصلاة والصوم والحج » فإن كمية الفقه المتعلق بالمظهر الاجتماعي للعبادة لم يتعد فقه الأسواق والعلاقات الاقتصادية الشعبية كقضايا المزارعة والرهن والسلم. أما الفقه الذي يعالج مسائل الأمة وقضاياها الكبيرة الرئيسة كالشورى وعلاقات الحاكم بالمحكوم ونظم السياسة والإدارة وقضايا العدل والحرية والمسؤولية السياسية والاجتماعية وقوانين الاجتماع البشري والعلاقات الدولية وعلاقات القانون والقوة فهذه وأمثالها فتكاد تكون غير موجودة. والكتب المعدودة التي تناولت أطراف هذه الموضوعات - كالأحكام السلطانية - للماوردي صيغت بأساليب

توفيقية ركزت على تبرير الأوضاع⁽¹⁾ القائمة آنذاك⁽²⁾. ولئن حصل هذا الفصل والانشقاق بين الفقه التشريعي والفقه الحضاري وأثر على مستوى استنباط الهداية القرآنية في مجال السنن وأنتج نمطا من التفكير نحا منحى تعميق الهوة بين آيات الكتاب وآيات الأنفس والآفاق، فإن هذا النمط لم يجد سبيله إلى التحول إلى نمط عام إلا بعد القرن الثامن الهجري رغم النقلة المعرفية والمنهجية التي أحدثها كل من ابن تيمية والشاطبي وابن خلدون، وإن كانت بوادر هذا النمط من التفكير برزت منذ انقضاء القرن الثالث الهجري. لكن القول بحدوث ذلك الانشقاق بين الفقهاء لا ينبغي التسليم به على إطلاقه، إذ لا ينبغي أن يحجب هذا الحكم إسهامات العديد من الفقهاء والأصوليين والمفسرين والمؤرخين والاجتماعيين الذين جددوا فهم نصوص الوحي وفق رؤية مقاصدية كلية تتكامل فيها علوم الوحي وعلوم الإنسان والاجتماع والطبيعة، وإن لم تكن بعض هذه العلوم قائمة بذاتها منفصلة عن غيرها.

لعل مما لا يدخله الشك أن أرقى سبيل موصل إلى العلم وأضمنها ما كان متعلقا بفحص مفاهيمه واصطلاحاته، فهي وعاءه وشكله ومادته، بل نصير إلى القول بأن المفاهيم ليست مجرد وسائل وأدوات في التحليل والتفسير، بل هي أكثر من ذلك حيث تمثل رؤية للعالم ونظرا في الوجود والحياة والإنسان. وستتناول بالنظر والتحليل المفهومي والمعرفي كلا من "المنهاج" و"الرؤية المنهجية".

(1) - لئن كان هذا القول لم يجنح في بدايته إلى التعميم لكنه مع ذلك أصدر حكما لا يسنده التاريخ؛ إذ ليس كل ما كتب في السياسة الشرعية داخل ضمن دائرة تبرير الأوضاع، وحتى الفقهاء الذين سلكوا هذا المسلك كانت لديهم مسوغات ومرجحات استندوا إليها ارتبطت بتصورهم للسلطة السياسية، والتوازنات والتدافعات الجارية على الساحة بين مختلف الطوائف والفرق، مهما كانت درجة صحة هذه المسوغات أو خطئها.

(2) - فلسفة التربية الإسلامية، ماجد عرسان الكيلاني، مؤسسة الريان، 1989/1419، ص 118.

المنهاج: الناظر في معاجم اللغة يجد أن مدار لفظ "المنهج" أو "المنهاج" على الدلالات الآتية: الوضوح والبيان والتتابع والاستقامة والحركة أو التحريك. ولم يرد في القرآن الكريم لفظ "المنهاج" سوى مرة واحدة في سورة المائدة "وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ" سورة المائدة إلا أنه مع ذلك يظل ورودا يتسم بفرادة هذا الإعلان القرآني العالمي لهذه اللفظة وما تحتويه من دلالات عميقة ضمن الوحدة البنائية الموضوعية القرآن، ولذلك فإن "مفهوم المنهاج القرآني أهم المفاهيم القرآنية بعد التوحيد ولذلك لا ينبغي أن تكون آية سورة المائدة هي المنبع الوحيد لصياغة المفهوم قرآنيا، بل ينبغي قراءة جميع الآيات التي أوردت شبكة من المفاهيم الفرعية والمصطلحات القرآنية الإلهية التي أحاطت بمفهوم المنهاج كما تحيط حبات العقد بواسطته؛ ليزداد بينها تألقا وبريقا ولمعانا وتزداد به ترابطا، ومن هذه المفاهيم والاصطلاحات القرآنية: الصراط المستقيم والسبيل الأهدى والسبيل السوي وسبيل الله والهدى والنور والاتباع والافتداء والشفاء والأسوة الحسنة..."⁽¹⁾.

(1) - العلوم الإسلامية. أزمة منهج أم أزمة تنزيل؟ طه جابر العلواني، ضمن: العلوم الإسلامية. أزمة منهج أم أزمة تنزيل : أعمال الندوة العلمية الدولية التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء، أكادير، 13-14 ربيع الثاني 1431هـ / 30-31 مارس 2010م / ص 68

ولعل آيات سورة المائدة تقدم للعقل المسلم محددات منهاجية كبرى تشكل جزءاً من براديجم المعرفة الإسلامية القرآنية في فهم الواقع البشري التي يمكن بسطها من خلال ما يأتي:

- إن قوة الرؤية المنهاجية المستنبطة من القرآن الكريم لا تدرك حقيقتها وفعاليتها إلا من خلال الوعي التاريخي والوظيفي لمفهومي التصديق والهيمنة القرآنيين. فالرؤية المنهاجية القرآنية هي البديل المنهجي والمعرفي، من حيث إن القرآن هو الذي يملك صفتي التصديق والهيمنة كمرجعية لتحقيق الهداية السننية، ويمنح الإنسان الإجابات الصحيحة والكافية عن تساؤلات الواقع الإنساني، ويمكنه من القيام برسالته الاستخلافية ووظيفته الاستعمارية في الأرض، وبقية من الوقوع في أشطان النماذج الحضارية المتوحشة. « والهيمنة تعني - فيما تعني - الرقابة والمراجعة والتقويم، وبيان مواطن الخلل، وتبيان علل التدين التي لحقت بالأمم السابقة، وهذا يشكل للمسلم رصيذاً عظيماً، وعمقاً حضارياً، وبعداً تاريخياً، ويمنح قدرة على توظيف هذا التاريخ المديد في بناء الحاضر ورؤية المستقبل، والإفادة من التجربة الإنسانية جميعاً، فالخاتمية تعني انتهاء تاريخ النبوة إلى الإسلام، الرسالة الخاتمة، يقول تعالى ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ [الأحزاب]، كما تعني الخاتمية للنص الإلهي القرآني، من وجه آخر، الخلود وعدم الانتهاء، وإنما امتداد العطاء والإنتاج حتى يرث الله الأرض ومن عليها. »⁽¹⁾

لقد امتلك الإنسان بهداية من الرسالة الخاتمة المفتاح الذي يحرره من الإصر والأغلال؛ إصر الطبيعة والمادة، وأغلال حضارات العصبية والآبائية

(1) - من تقديم عمر عبيد حسنة لكتاب: البعد المصدري لفقه النصوص، صالح قادر الزنكي، كتاب الأمة العدد 113، جمادى الأولى 1427هـ، السنة 26، ص 5 و 6.

والقهر، وصار مؤهلاً لإكمال مسيرة الخلافة دون حاجة إلى كتاب آخر بعد القرآن.

- وجود علاقة اقتران بين الشرعة والمنهاج حسب الرؤية القرآنية، فالشرعة ضابطة للرؤية المنهجية كما أن المنهاج هو تعبير عن المنظور التوحيدي الاستخلافي الذي جاءت به الشرعة، كما أن فقه الشرعة يكون محكوماً بمقومات منهجية ناظمة لهذا الفقه في اللحظة نفسها التي يكون فيها المنهاج محكوماً بمقاصد الشرعة ومنظومتها القيمية.

- إن براديجم المعرفة الإسلامية القرآنية في فهم الواقع البشري موجه بتفعيل مقصد كلي هو مقصد الحق من حيث هو الغاية الكبرى من وراء الشرعة والمنهاج على ما يحمله مفهوم الحق من أبعاد منطقية وإبستمية وخلقية وعقدية يجعل منه الإطار المرجعي الذي تنتظم داخله كل وحدات الرؤية المنهجية وعناصرها وعلاقاتها التفاعلية.

- إن براديجم المعرفة الإسلامية القرآنية في فهم الواقع البشري براديجم نقدي يقوم أولاً على فقه المراجعات المنهجية والمعرفية للحركة الحضارية التاريخية سواء لأتباع الرسالات أو لمن جاء فيما بعد نزول القرآن الكريم، وتتعلق هذه المراجعات بمناهج التراث الإنساني الذي أنتج حول الواقع وما تعلق به من علوم اجتماعية وإنسانية، كما تتعلق هذه المراجعات بمناهج التراث الإسلامي في تعامله مع القرآن الكريم وإشكالية النص والواقع وبالمناهج المعاصرة التي خاضت مسار قراءة النص القرآني وتأويله مما يستدعي ضرورة الخروج من ضيق القراءات التراثية وتلك التي تدعي الحداثة.

- إن تلازمة الشرعة والمنهاج تلازمة تنطوي على تأكيد النسقية المعرفية القرآنية على التكاملية التداخلية بين المعرفي (الشرعة) والمنهاجي. مما يعني وقوع العلم الإسلامي في كثير من مراحل أو أية قراءة حدائية معاصرة في أزمة بحكم افتقار البناء المعرفي والنسق الفلسفي في قراءة النص في علاقته بالواقع

إلى الانخراط في عملية تفعيل آليات التكامل التداخلي المعرفي والمنهاجي في الوحي.

- إن امتلاك الوعي المنهاجي الناظر إلى الواقع انطلاقاً من مفهوم الابتلاء المقرون بمفهوم الاستباق الخيري غير المفصول عن القيمة الأخلاقية المتمثلة في ترك الأهواء وعن القيمة الروحية الاعتقادية التي تنبئ بالحقائق المطلقة يوم القيامة عاصم من الوقوع في فتنة الفلسفات الوضعية المادية المفارقة لحقائق الغيب والمفصولة عن الوعي بجدلية الغيب والإنسان والطبيعة. فحيث أن الرؤية الغربية رؤية مادية وضعية ألغت من حسابها كل ما هو غيبي مرتبط بالوحي وبالمرجعية الإلهية واستبدلت جبرية المادة بجبرية الآلهة، وقعت ضحية فلسفات تجريبية مادية فغيت أبعاداً أساسية في الوجود البشري وال عمران الإنساني، ترتب عن ذلك نتائج كارثية عكست ضللاً في الفهم وخللاً في مقارنة الظاهرة الاجتماعية والحضارية، امتد ذلك إلى وضع برامج ثقافية وتربوية وسياسية مخالفة لسنن الفطرة الإنسانية، وهذا ما تعبر عنه كثرة مدارس علم الاجتماع الغربي وتعدد مناهجه مع شح بالغ في النتائج. ولن يهتدي علم الاجتماع المعاصر إلى فهم سليم لظواهر المجتمع والثقافة والحضارة ما لم يتنازل عن كبريائه الموهوم، ويعيد تصحيح المسار العلمي والمنهجي للعلوم الاجتماعية باستلهم أنوار الوحي وبصائره.

- أن الشرعة هي ضمانة استقامة المنهاج وعدم وقوعه ضحية النسق الحضاري الوضعي المادي إذ هي إطاره المرجعي الذي يتحقق من عملية تأصيل المفاهيم التي يوظفها المنهاج، فالشرعة تمنح للمنهاج فعالية مفاهيمه المؤصلة والموصولة غير المنقولة في حين يتكلف المنهاج بتقديم الإجراءات والخطوات التي تحول تلك المفاهيم إلى بعد إجرائي قادر على تعقل الواقع وفهم ظواهره، وهو ما نصطلح عليه بالوظيفة التحويلية للمنهاج.

- أن سنة الله ماضية في لحوق العمران والمجتمعات إصابات موجعة متى تولت عن شرعة الله وتلبست بالفسوق المنهاجي فيصيبها الله بعذابه، ويصرف وجهتها نحو التيه المعرفي والمنهجي والسفه القيمي.

ويمكن القول أن المنهاج وفق هذه الرؤية هو منظومة متكاملة ومتفاعلة من الآليات والعمليات الموجهة للعقل البشري تعتمد نسقا مفهوما وإطارا مرجعيا وكليات مقاصدية نحو كشف وبيان حقائق معينة في مجالات الكون والاجتماع وآيات الأنفس والآفاق.

أما فيما يخص المنهاجية فنميز بين المنهاجية كرؤية والمنهاجية كعلم. فإذا كانت المنهاجية من حيث هي علم يهتم بدراسة النماذج التحليلية والمقتربات الإرشادية والبراغمات العلمية التي تمنح للمشاريع البحثية فعاليتها وكفاءتها الإنجازية، فإن المنهاجية كرؤية هي تفعيل للمنهاجية كعلم نحو خصائص إستيمولوجية محددة وقيم ثقافية معينة في تناسب وتناغم مع الأسس المعرفية والاعتقادية والاستدلالية للنسق العلمي الإسلامي توجه البحث نحو تعقل إشكالية العلاقة بين النص القرآني والواقع الإنساني وفق السياقات المتجددة التي تستوجب ألا:

- تجديد النظر النقدي في البراديجمات القديمة المعتمدة في فهم الخطاب القرآني كما تمخض عن ذلك الإرث التفسيري، وهي براديجمات- في جزء منها- يمكن القول أنها قد فقدت وظيفتها بحكم انغلاقية رؤاها وانفصالها عن اجتماعيات اللحظة التاريخية التي كانت مترامنة معها مع التنويه بتلك الإبداعات النقدية والتجديدية التي قادها ابن تيمية في سعيه نحو استعادة تكاملية المعرفة الإسلامية وتجديد القول في مناهج تفسير النص القرآني وتخليصه من أثر الثقافات والمناهج الدخيلة، والشاطبي في محاولته الرامية إلى إعادة بناء المعرفية الأصولية المقاصدية وفق مقارنته العمرانية، ومحاولة ابن خلدون في

إعمال الرؤية القرآنية في فهم حركة التاريخ والكشف عن سنن الاجتماع البشري.

- بيان الرؤية المنهاجية لتفاعلية العلوم والمعارف الشرعية والكونية وتوجيه النظر التكاملي بين الكونيات والإنسانيات والشرعيات. وهو نظر تكاملي يقوم على إعادة ردم الهوة بين الاجتماعيات والشرعيات. وقد نتج عن معضلة وأزمة نشأة العلوم الإنسانية والاجتماعية بالغرب، وسياقات ورودها داخل المجتمعات الإسلامية، واستنباتها دون الوعي بأصولها المعرفية وحلقاتها الفلسفية ورؤيتها للإنسان والكون والحياة وذلك من لدن أناس لا صلة لهم بالرؤية المعرفية والمنهجية للعلوم الشرعية - نتج عن كل هذا - « انفصال العلوم الوافدة عن العلوم الموروثة بمناهجها وموضوعاتها وقضاياها التي تهتم بها، والنتائج التي تتوصل إليها. وأضحت لدينا علوم اجتماعية حديثة ولكنها غير وظيفية، كما أضحت لدينا علوم شرعية أصيلة ولكنها غير فاعلة في التطور الاجتماعي. وإضافة إلى ذلك كانت مدرسة العلوم الاجتماعية الحديثة أكثر قدرة (من) مدرسة العلوم الشرعية على ملء الفراغ الذي أوجده جمود العلوم الشرعية وعجز القائمين عليها عن استيعاب القضايا المستحدثة وإخضاعها للمنهجيات الشرعية، ووجدت مدرسة العلوم الاجتماعية داعما قويا لها في الدولة الحديثة من جهة، والدوائر الأكاديمية الغربية من جهة أخرى. وبعد مرور ما يقرب من قرن على نشأة العلوم الاجتماعية الحديثة - المنقولة، ثبت أنها لم تسهم في تقدم أو نهضة المجتمعات العربية والإسلامية، وأن حصيلة ما أنتجه أساتذة العلوم الاجتماعية - بمختلف فروعها - لم يعد كونه مجرد نظريا واهية الصلة بمشكلات المجتمع الذي ينتمون إليه، واتضح أنه كانوا في أغلبهم وسطاء

مترجمون، ولم يكونوا علماء حقيقيون، ولم يظهر لواحد منهم نظرية اجتماعية أو نفسية أو سياسية أو اقتصادية تنسب إليه هو وإلى اجتهاده الذاتي»⁽¹⁾.

إنه من الضروري ردم الهوة بين العلوم الشرعية والعلوم الاجتماعية، وتجاوز الفصل بينهما الناتج عن ظروف انحطاط الأمة وتخلفها. والأصل أن علوم الشرع كانت اجتماعية، وأن ما هو اجتماعي كان موجهًا بعلوم الشرع، فطبيعة هذه الأخيرة اجتماعية، كما أن العلوم الاجتماعية ينبغي أن تكون شرعية ويجب أن تكون المنهجية الشرعية الإنسانية هي الحاكمة، وهو ما يقتضي منا اليوم وضع قواعد الاستمداد المنهاجي القرآني واستثمار المنهجيات الشرعية الأصولية وإعادة بنائها وتجديدها بهدف تطوير مناهج العلوم الاجتماعية برؤية منهاجية كلية مقاصدية.

المنطلقات

لا يمكن لهذه المنهاجية كروية أن تقودنا نحو فهم علمي لإشكالية علاقة النص بالواقع وتجاوز أزمة التوظيف التجزيئي لمفاهيم شرعية أو الإسقاطي لمناهج معاصرة أو الوقوع في ثنائيات حدية مغلقة تقطعية تصنيفية(الواقع\النص...) إلا من خلال تأسيس هذه الرؤية المنهاجية على منطلقات الخطاب القرآني ومركزاته وخصائصه، لكننا سنقتصر هنا على أفراد الكلام عن منطلقات الخطاب القرآني، على أن حديثنا عن خصائصه ومركزاته مبنوث بين صفحات هذا البحث.

الرؤية التوحيدية الكونية: التوحيد هو محور ارتكاز الرؤية المنهاجية القرآنية "والتوحيد مدخل تفسيري ذو قابليات هائلة وقدرات متنوعة لتفسير آلاف الظواهر النفسية والسلوكية والنظمية والمعرفية في مختلف

(1) - المجتمع المدني في ضوء المقاصد العامة للشرعة، إبراهيم البيومي غانم، ص 121 ضمن كتاب: مقاصد الشريعة وقضايا العصر: مجموعة بحوث.

المستويات"⁽¹⁾ والرؤية التوحيدية الكونية المستوعبة للغيب والإنسان والطبيعة هي القاعدة الأساس لإطلاعية القرآن ومنهجية المعرفة الحاكمة، والخيطة الناظم للآيات الأفقية والسنن العمرانية، والمرجع في النقد والمراجعة لكل القضايا المتعلقة بفقه النص القرآني في علاقته بالواقع. فأي تعارض مع هذه الرؤية لا يمكن إلا أن يبعدنا عن مقاصد هذا النص ويوقعنا في تناقضات وتخرصات وافتراءات على الله. إن هذه الرؤية التي تمتد في الزمان والمكان، وتشغل عالمي الغيب والشهادة، وتكشف عن حيوية البيان القرآني وشموله لنداء الفطرة والوجدان والحواس والتجربة والعقل، وتنطلق من قداسة القرآن هي العاصم من الوقوع في شرك علموية تاريخية مفرطة أو بنيوية مغلقة أو تجريدية ضيقة أو تجريبية ساذجة ومن ثم "إن القرآن ليس تجميعاً لنصوص محفوظة، وإنما هو جمع آيات التحمت عبر لحظات متدافعة في مواقع متجددة وبأغراض توجيهية معلومة، سواء كان هذا التوجيه بالإعمال أو بالإبطال، بالدعم والتثبيت أو بالتقويم والتصويب. وإذا ما انقضت المناسبات والملابسات، بقيت هذه الآيات لا بمثابة الذكرى التي تسجل واقعة انقضت، وليس كمحفظة تاريخية أو بيان توثيقي، وإنما بقيت هذه الآيات تحتفظ بكامل فعاليتها التوجيهية النافذة عبر الزمان والمكان، بالنسبة لكل موقف إنساني، اجتماعياً كان أو تاريخياً، يحتوي على عناصر الموقف الأساسي الذي كان سبباً في النزول. ولأن المواقف التي تتخلل حياة الأفراد والجماعات والأمم لا تخلو من عناصر

(1) - العلوم الإسلامية. أزمة منهج أم أزمة تنزيل؟ طه جابر العلواني، ضمن: العلوم الإسلامية. أزمة منهج أم أزمة تنزيل: أعمال الندوة العلمية الدولية التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء، أكادير، 13-14 ربيع الثاني 1431هـ / 30-31 مارس 2010م / تحرير عبد السلام طويل؛ تقديم أحمد عبادي، ص72.

تلازمها ملازمة الفطرة للإنسان، فلا عجب أن ظل البيان القرآني ينبض حيوية وتفعيلاً بوصفه تنزيلاً من لدن عليم خبير".⁽¹⁾

الوحدة البنائية للقرآن المجيد: في القرآن أحكام من لدن خبير، ووحدة لا اختلاف فيها، واللسان العربي وسيلة لتدبره وليس حاكماً ومهيماً عليه. فلا نحكم في آيات القرآن إلا آياته لأن "القرآن المجيد في اتساق وحدته البنائية يحقق للبشرية وحدة معرفية تلملم شتات الإنسان المعرفي، وتوحد بين زوايا إدراكه، بما يشبه إكسابه جهاز تنسيق معرفي يمكنه من الخروج من التفرع الإدراكي ومرحلة الشركاء المتشاكسين إلى صيرورته سلماً لله رب العالمين"⁽²⁾. وهنا قضية أساسية وهي ضرورة اتساق الرؤية المنهجية في فهم علاقة النص القرآني بالواقع مع بنائية واتساقية القرآن المجيد.

التكاملية النسقية: وذلك لتجاوز ملامح وتجليات أزمة البراديجم داخل المعرفة الإسلامي التي من بينها هيمنة ثنائيات معرفية حدية حالت دون تطوير مناهج النظر والتدبر في النص القرآني واستثمار نتائج هذا التدبر في ترشيد الواقع البشري. "ولما لم تستطع هذه الثنائيات استلهاًم نسقية الوحي وتفعيل آليات تداخله المعرفي فإنها لم تكن مفاهيم إجرائية وعملية فقط، بل اتخذت مواقف مذهبية وعقدية تستوجب كونها الصواب العلمي الأوحد في واقع الدولة الإسلامية.... فغذت تلك الثنائيات عاملاً سلبياً متسماً بميزتين: الأولى: كونها آليات تقطيعية لوحدة التنوع المعرفي في النص الشرعي... الثانية: إبعاد العقل المسلم عن تنمية مقاصد آليات التداخل المعرفي في الوحي، وهو الأمر الذي

(1) - نحو منهجية للتعامل مع مصادر التنظير الإسلامي بين المقدمات والمقومات، منى أبو

الفضل، ص، 21 و 22

(2) - مفهوم الترتيل في القرآن الكريم: النظرية والمنهج، أحمد عبادي، ص 63

أنتج ضعفا معرفيا في تفعيل القراءة التكاملية الاستنطاقية الاستكشافية الجامعة بين تدبر سنن الوحي وسنن الكون وسنن الإنسان.⁽¹⁾

في جدلية النص القرآني والواقع الإنساني:

إن طبيعة النص القرآني أنه مستوعب للبنى المادية والعقلية والاجتماعية ومفعول لها في اتجاه إعادة تشكيلها باتجاه تحقيق الخيرية والعبودية وفتح آفاق التسخير والعمران وفق المنظومة التوحيدية الاستخلافية. ولا شك أن تنزل الآيات بحسب الأحداث والظروف والسياقات وفي زمان ومكان محددين يحيل على إشكالية المساحة بين النص والواقع، بين نص تم داخل التاريخ وواقع متجدد على الدوام، لكن خاتمية النص القرآني وهيمنته وحاكميته تجعل منه نصا لكل زمن، فيكون بذلك كل زمن مستوعب من قبل النص الخاتم، وأن قيمه ومقاصده ومنظومته السننية العمرانية تجعل من العلوم التي تتخذ من الواقع موضوعا لها تستمد منه الهدايات والبصائر. فلا مجال لافتعال القطيعة بين النص القرآني والواقع تقليدا لاستراتيجيات القراءة والتأويل في النص الأدبي أو اللاهوتي الغربي كما تجلت في الهيرمينوطيقا والتفكيكية والتأويلية.

ولعل ضبط المساحة العملية بين النص والواقع تجاذبا وتنافرا، قربا وبعدا، تأثيرا وتأثرا، تفعيلًا وترشيذا، خطوة أساسية على مستوى التدافعية السننية العمرانية، فالنص والواقع يتدافعان تفعيلًا لمقتضيات النص وإعمالا لحركية الواقع. "إن انفصال فقه النص عن فقه الواقع، الذي يعتبر في الأصل من لوازمه، جعل التفقه في النص يتحرك غالبا في إطار نظري، بعيدا عن الحياة، وقد يعرض لمسائل طواها الزمن ولم يتبق لها على أحسن الأحوال إلا القيمة التاريخية، علما بأن من لوازم التفقه في النص التفقه في الواقع، إذ لا قيمة عملية لفقه

(1) - آليات التداخل المعرفي القرآني وتجديد البارادغم المنهجي والتنزيلي في العلوم الإسلامية / عبد الرحمان العضاوي، ضمن: العلوم الإسلامية. أزمة منهج أم أزمة تنزيل،

النص المجرد بعيدا عن إدراك الواقع المجسد واستحقاقاته وكيفية تقويمه بفقه النص.⁽¹⁾

إننا نعلم إلى محاصرة النص وتقطيعه حينما نفصله عن الواقع ذلك أن الواقع هو محل تنزيل النص ومناطه "إن الواقع بقدر ما ينأى عن العيشة فإنه مستأنس بالنص الذي يتمثله تقربا أو زلفى أو تقوى أو ورعا. كما أن النص يسري باتجاه واقع مفتقر لمقتضيات الترشيده وبواعث السمو، فيتزلزله عليه في إطار جهد واجتهاد بشري "يحيا الواقع ويقرأ النص"، إذن فلا نص في فراغ ولا واقع مقطوع عن بواعث الرشد... فكان نصا ينطوي على واقع يستوعبه، وإن تجاوزته متساميا منه وبه إلى غيره من مجالات واقع متجدد ومستحدث ومن ثم جاء نصا مرشدا معلما يحمل "معالم الإطلاق" دون أن يفقد قابلية التنزل استجابة لدواعي النسبية في مواقف تحكمها حدود المتناهيات فيستوعبها ويتجاوزها.⁽²⁾ ولعل المنهجية المعرفية الوضعية المادية في توهمها القطيعة بين نص وواقع وتأثر الحدائين المتغربين بها لم تقنع بذلك بل اتجهت نحو جعل الواقع حكما على النص بعد أن حكمت على النص بنسبته وتاريخيته، وألغت إطلاقيته، وأصبحت هذه المقولة مقولة النسبية مقولة مطلقة تحكم النص والواقع معا في عيشة معرفية وفوضى منهجية حيث لا ثوابت ولا مطلقات ولا قداسة ولا حاكمية واتخذت من أسباب النزول ذريعة لرفع دعوى ضد القرآن هي دعوى التاريخية. وهي دعوى باطلة كما سيأتي في كلام طه عبد الرحمن حول خطة التأريخ ضمن الخطط الحدائية المقلدة.

ونعتبر النموذج التفسير السنني هو المقرب المنهجي الكفيل باستيعاب العلاقة الجدلية النص والواقع وتكاملية فقه النص وفقه الواقع، ذلك أن الحديث

(1) - البعد المصدري لفقه النصوص، صالح قادر الزكي، كتاب الأمة، ع113، سنة 1427 من

تقديم عمر عبيد حسنة، ص14.

(2) - نحو إعادة علوم الأمة، منى أبو الفضل، ص45.

عن السنن لا ينفصل عن نسقية وتقصيدية القراءة المتجددة المبدعة للقرآن، حيث تتناسب سنن الشرع مع سنن الواقع. إن المتدبر للقرآن الكريم وهو يقدم للعالم رؤيته للإنسان والحياة وال عمران سيكتشف تلك النقلة المنهجية والمعرفية التي أحدثها القرآن بجعله مسألة السنن قضية مركزية في إنجاح عملية الاستخلاف والتسخير، وسيدرك مدى التأثير الذي أنجزه القرآن في التاريخ العالمي للحضارات بتقديمه ولأول مرة في التاريخ الإنساني منظومة متكاملة من سنن التسخير والاستخلاف مصحوبة بخلاصة تجارب الأنبياء وخبرات الحضارات ووقائع التاريخ.

وحتى تتم عملية بناء النموذج التفسيري السنني بكيفية منهجية دقيقة وبرؤية كلية ونسقية مفتوحة ومنفتحة تستمد أسس قوتها من الخطاب القرآني العالمي والتطبيق النبوي الرسالي وفق الكليات المفهومية الكبرى: التوحيد والاستخلاف وال عمران والوسطية والخيرية والشهادة، وحتى نخلص هذا النموذج التفسيري السنني من كل مادية وضعية لا تؤمن إلا بالطبيعة في جدلها المادي مع الإنسان، و نخلصه أيضا من كل غيبية ساذجة تلغي الفاعليات الإنسانية ولا تؤمن إلا بقراءة الفعل العمراني الإنساني قراءة لاهوتية، فحتى يتم ذلك لابد من استحضار هذه المحددات المنهاجية كمعالم كبرى تنجز من خلالها الأمة التكليف الشرعي المتعلق بإحكام السنن، ويمكن إجمال هذه المعالم والمحددات فيما يأتي:

- اعتماد مبدأ التكاملية المعرفية على مستوى المصادر، وهي تكاملية تتفاعل فيها مصادر متعددة (الوحي والواقع والتاريخ والفطرة) دون طغيان نزعة حرفية نصية على نزعة عقلية، أو هذه الأخيرة على نزعة مادية أو تاريخية واقعية.

- لا ينبغي للمحدد السابق أن يفيد تساوي مصادر المعرفة الأخرى مع الوحي في المصدرية والمرجعية، وهو ما يعني عدم تحكيم قواعد النظر في الوحي تلك التي لا تتفق مع مقاصده ولا تنسجم مع رؤيته التوحيدية الكونية.

-التوسل بمناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية بعد تخليصها من تحيزاتهما
المعرفية والمنهجية للرؤية الفلسفية الغربية بما تمثله هذه المناهج من خبرة
تراكمية نظريا وتطبيقيا، ومن قدرة على إسعاف النموذج التفسيري السنني من
بناء وحداته وأطره المنهجية.

-ضرورة الاستهداء بمنظومة القيم الحاكمة والضامنة لرشد ورشاد هذا
النموذج التفسيري السنني وهي قيم الخيرية والوسطية والمسؤولية والأمانة
والشهادة.

-مراعاة هذا النموذج لمقتضيات الاستخلاف والتسخير والعمران
والعالمية على اعتبار أن السنن تكليف شرعي للأمة بمجموعها من حيث هي أمة
مثلت حلقة ختم النبوات بمنهجية رسالية جديدة.

في معالم الرؤية المنهاجية "لاجتماعيات" النص القرآني:

إن ما تقدم يدفعنا إلى صرف الجهود نحو ما يسمى ب"الرؤية المنهاجية
لاجتماعيات النص القرآني" تفعيلا وترشيدا للقراءة المتجددة للنص القرآني وما
يجري في ساحة العلوم الاجتماعية والإنسانية على مستوى المنهج والمعرفة؛
استيعابا وتصويبا وتجديدا. ولا شك أن القرآن العظيم قدم أصول هذه
"الاجتماعيات" وبنيتها ونسقها وهندستها وخصوصياتها بما يعين العلوم
الاجتماعية اليوم على الخروج من أزمتها، واستنباط السنن التاريخية والحضارية
الموجهة للواقع الإنساني من خلال اعتماد المنهجية الآياتية في ترتيل القرآن
المجيد. ولا يخفى على أهل البحث والنظر احتياج حقل الدراسات القرآنية
اليوم إلى جهود منهاجية تقوم على النظر في القرآن الكريم نظرا تعقليا تقصديا
يكشف عن بصائر منهجية وهدايات معرفية تقدم الحلول لأزمة العلم الإنساني
اليمعاصر وتجدد القول في علم التفسير من حيث هو علم يعقل كلام الله تعالى
يكشف مقاصده الرامية إلى تحقيق هداية العالم، وتخلصه من تلك الآثار السلبية
لتلك العلوم التي ارتبطت بالقرآن فصارت علومها تاريخية وصار معها النص

القرآني نصا تاريخيا، ثم تنطلق من القرآن ذاته ليس باعتباره مادة للتفسير بل من حيث هو منهج في التفسير، كما في قوله تعالى: وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا الفرقان33، " ولم يقع التنبيه على هذا الأمر في علوم القرآن والتفسير، بحسب اطلاعي المتواضع ونظري الكليل، والخلاف بين والفرق واضح، فأن يكون القرآن مادة للتفسير، فالباب يفتح على شرح مفرداته وتراكيبه... لكن أن يكون القرآن هو التفسير، فهذا يعني أن يتحول إلى منهج وأداة به نقرأ الواقع والحياة والماضي والحاضر والمستقبل ..."⁽¹⁾

إن مراجعة منهجية تفكيكية للمدونة التفسيرية هي خطوة أساسية في التنظير للرؤية المنهجية لاجتماعيات الخطاب القرآني تعمل على نقد كسبها المعرفي من حيث هو كسب تاريخي نسبي محكوم بأطر اجتماعية وثقافية لا يمكن أن يرتهن لها النص القرآني بما يحمله من آفاق إنسانية عالمية. وهو بيان عن عدم كف النص القرآني عن إمدادنا بالمعنى الذي يتجاوز مع التاريخ ويتجاوز حديثه نحو استيعاب حركة الوعي الإنساني وتجاوزها نحو آفاقها الغيبية متى أحكمت عناصر منظومته ومرجعياته.

لكننا نؤكد في مقابل ذلك أن الدعوة إلى القراءة المتجددة للنص القرآني في أفق استخلاص الرؤية المنهجية لمعالجة قضايا العلم والاجتماع والفكر والسلوك بقدر ما تنبّه لنسبية الكسب التفسيري وطابعه التاريخي ومازق القراءات التراثية دون تجاهل أشكالها المبدعة، فإنها لا تغفل عن ما تعرفه ساحة الدراسات القرآنية التفسيرية اليوم من فوضى منهجية وفكرية لكتابات تدعي فتح عهد تفسيري جديد تمحو خصوصية النص القرآني وتخرج عن الصفة الاعتقادية

⁽¹⁾ - مرتكزات منهجية في المراجعة العلمية لعلوم القرآن وتفسيره وبلاغته، محمد إقبال عروي، ضمن العلوم الإسلامية. أزمة منهج أم أزمة تنزيل: أعمال الندوة العلمية الدولية التي نظمتها الرابطة المحمدية للعلماء، أكادير، 13-14 ربيع الثاني 1431هـ / 30-31 مارس 2010م/ تحرير عبد السلام طويل؛ تقديم أحمد عبادي، ص380.

إلى الصفة الانتقادية حيث لا تسعى إلى تحصيل الاعتقاد بقدر ما تروم ممارسة انتقاد بعض الآيات⁽¹⁾.

ولا يخفى على أي متتبع للدراسات القرآنية اليوم اشتداد القراءات الحداثية على آفة التقليد مع وقوعها فيها، وانتصارها للمناهج المعاصرة في قراءة النص مع غفلتها عن إحكام صنعتها كما أحكمها أصحابها من فلاسفة الغرب وقارئ النصوص اللاهوتية، كما لم يعظم اعتراض هذه القراءات بمثل عظم اعتراضها على قداسة النص القرآني فأنتجت تأويلات أبعد عن التلاوة والترتيل أفقرت النص القرآني من فاعليته في إعادة بناء الواقع الإنساني المعاصر. لذلك كان لزاما علينا النظر في دعوى تجديد قراءة النص القرآني وثنائية النص والواقع للتححرر من ميتافيزيقا الثنائيات والتقابلات المفهومية المتوهمة، حيث إن القرآن نص وقول حدث في التاريخ فهو بهذا المعنى تاريخي واقعي لكن إطلاقيته وقداسته تجعله ليس كأى نص أو قول بشري، إنه كذلك فوق التاريخ فلا يمكن أن تحكمه الوقائع الإنسانية والمناهج التأويلية البشرية إلا بقدر ما تكون قواعدها وآلياتها ووسائلها مستمدة من القرآن نفسه فيكون القرآن مصدقا لها ومهيمنًا عليها وتبقى إطلاقيته التاريخية ونسبية القراءات والمناهج البشرية. إن للنص القرآني يقول طه عبد الرحمن: "وضعا تاريخيا لا يضاهيه فيه غيره، حيث إنه النص الديني الخاتم، والنص الخاتم يمتد زمنه إلى ما وراء زمن نزوله، حتى إن كل زمن يليه يكون زمنه؛ فيتعين أن نبحت في الآيات القرآنية، لا عن علامات الماضي، حتى نوقف صلاحيتها على هذه العلامات، واقعين في تاريخية ماضوية، وإنما أن نبحت فيها على علامات الحاضر، حتى نستمد منها معالم الاهتداء في الحياة الآتية، صانعين لتاريخية

(1)-انظر، روح الحداثة، طه عبد الرحمن، ص176.

مستقبلية؛ فلا بد للنص الخاتم أن يكون نصا راهنيا، وأن تكون راهنيته راهنية دائمة.....ومن ثم فلا نظير للقرآن في أحداثه التاريخية.⁽¹⁾

إن تعالم النزعات الكلامية المعاصرة في تعاملها مع النص القرآني وبمناهجها التأويلية والتفكيكية المتأثرة بالنقد الفلسفي الغربي للنص اللاهوتي وتقليدانية مفكرة الغرب في إنتاجهم لقراءات جديدة معاصرة بحسب ادعائهم المزعوم يخفي وراءه عجز هذه النزعات عن الانخراط الفعلي والثوري في تجديد قراءة النص القرآني بما يحقق مقاصده في هداية الخلق إلى الحق.

وقد أجاد الفيلسوف المعاصر طه عبد الرحمن في الكشف عن خطط القراءات الحداثية المقلدة على مستوى الهدف والآلية والعمليات، مقدما في مقابلها شروط الإبداع في قراءة النص القرآني مبرزا خطط القراءة الحداثية المبدعة⁽²⁾، وهي ثلاث خطط:

1. خطة التأنيس المبدعة: ولا تقصد هذه الخطة محو القدسية على عكس خطة التأنيس المقلدة التي يروج لها الحداثيون، وإنما تقصد تكريم الإنسان، بحيث يكون تعريفها هو أنها نقل الآيات القرآنية من وضعها الإلهي إلى وضعها البشري، تكريما للإنسان. وبدهي أن الاعتبار الذي يأتي موافقا للإرادة الإلهية خير من الاعتبار الذي يأتي مخالفا لها، إذ يكون الإله هو الضامن لاستمراره واستكمالها، فخطة التأنيس المبدع تعيد وصل الإنسان بخالقه وصلا يرفع مكانته ويحقق كرامته، تبطل المماثلة اللغوية التي أقامها التأنيس المقلد بين النص القرآني والنصوص البشرية.

2. كما أن خطة التعقيل المبدعة لا تقصد محو الغيبية كخطة التعقيل المقلدة، وإنما تقصد توسيع العقل. فهذا التعامل العلمي مع الآيات القرآنية لا

(1) - روح الحداثة، طه عبد الرحمن، ص 204.

(2) - روح الحداثة، طه عبد الرحمن، من ص 178 إلى ص 204

يضعف التفاعل الديني متى تخلينا عن أسلوب الإسقاط عند العمل بهذه المنهجيات.

وإذا كانت العمليات المنهجية في خطة التعقيل المقلد تشتغل بمحو الغيبية من النص القرآني، فإنها في خطة التعقيل المبدع تشتغل ببيان توسع العقل في هذا النص، بحيث يكون الانشغال بالعقل فيها أكثر منه في الأخرى، ذلك أن التعقيل المقلد يشتغل بدفع ما يتوهم أنه يضر بالفكر العقلاني، أي الغيبية، في حين أن التعقيل المبدع يشتغل بجلب ما ينفع هذا الفكر، ومتى تحقق جلب هذه العقلانية، اندفع بالضرورة ما يضرها من الغيبية الغالية، ومن هنا يكون التعقيل المبدع أكثر تغلغلا في الحداثة من التعقيل المقلد بموجب المبدأ الحدائي الذي يقضي بالعناية بالعقل.

وحينئذ، تبطل المماثلة الدينية التي أقامتها خطة التعقيل المقلد بين النص القرآني وبين النصوص الدينية الأخرى، وذلك من وجهين، أحدهما أن الفرق بين العقل الذي يتضمنه النص الديني التوحيدي وبين العقل الذي يتضمنه النص الديني الوثني فرق لا يطوي، فالعقل التوحيدي يرتقي علي العقل المادي مراتب تختلف باختلاف الأديان المنزلة، بينما العقل الوثني ينحط عن العقل المادي مراتب تختلف باختلاف الأديان غير المنزلة، وإذا كان الأمر كذلك، لزم أن تكون العبادات والقصص في النص التوحيدي غيرها في النص الوثني، إذ تمثل في الأول وسيلة لممارسة عقل أعلي، وفي الثاني وسيلة لممارسة عقل أدني، والوجه الثاني، إذا سلمنا بأن النصوص الدينية المنزلة إما هي تجليات لوحي واحد، كل تجل يصدق التجلي الذي سبقه ويهيمن عليه، وجب أن يكون النص القرآني مهيمنا عليها جميعا، فيفضلها عقلا.

3. تروم خطة التأريخ المبدعة ترسيخ الأخلاق، وليس محو الحكمية كما هو الحال مع خطة التأريخ، فيكون تعريفها إذا هو أنها وصل الآيات القرآنية بظروف بيئتها وزمنها وسياقاتها المختلفة، ترسيخا للأخلاق. ذلك أن التأريخ

المقلد يشتغل بدفع ما يتوهم أنه يضر بالسلوك، أي الحكمية، في حين أن التأريخ المبدع يشتغل بجلب ما ينفع هذا السلوك، أي الأخلاق، وعليه، يصبح التأريخ المبدع أكثر تغلغلا في الحداثة من التأريخ المقلد بموجب المبدأ الحداثي الثالث الذي يقضي بالعناية بالسلوك الديني. وبالنتيجة، تبطل المماثلة التاريخية التي أقامتها خطة التأريخ المقلدة بين النص القرآني وبين النصوص التاريخية.

ولعل ذلك هذه القراءة المبدعة للنص القرآني لا تتحقق في نظرنا إلا بأربعة شروط أوردنا كثيرا من قضاياها مفصلة ونحن الآن نجملها فيما يأتي:

- الوعي بالوحدة البنائية للقرآن الكريم وإعمال خصوصيات خطابه العالمي في الفهم والصياغة والتنزيل.

- الوعي بالبنية المعرفية الواقعية "للاجتماعيات" وما تنطوي عنه من خصوصيات ظواهرها.

- الوعي المنهاجي بمقومات النظر العلمي والتنظير الإسلامي للواقع الإنساني.

- الوعي التاريخي بتحولات عالم "الاجتماعيات" ومنظومته السننية الحاكمة وفق الرؤية القرآنية.

ولعل رباعية الوعي هذه حافز نحو تثوير القرآن في فهم علاقته بالواقع والخروج من أشكال التقليد التاريخية ومن ادعاءات القراءات الحداثية التي لم تكن أحسن حالا من القراءات التراثية في اتصافها بالتقليد وتلبسها بالإبداع المفصول غير الموصول بمنهاجية القرآن وخصوصياته.

خاتمة:

إن وعينا بالطبيعة الإشكالية والتاريخية لمسألة فهم القرآن بين النص والواقع هو الذي فرض علينا أن نتقدم بتلمس معالم رؤية منهاجية ترسم الطريق للباحثين والناظرين في كتاب الله تعالى من حيث هو كتاب رباني عالمي خالد

يملك في ذاته عناصر فهمه وتدبره وترتيبه التي لا يمكن بحال من الأحوال تجاوزها لصالح قراءة لا تراعي خصوصيات الخطاب القرآني ومنطلقاته سواء كانت قراءة تراثية تقليدية تنكب منهج القرون الأولى في الفهم والتدبر أو قراءة حديثة متعالمية تريد أن تتعامل مع النص القرآني كما تتعامل مع أي نص بشري أو تاريخي، و لا يمكن لكلتا القراءتين سوى أن تنتج تعضية للخطاب القرآني وتفصله عن عملية التدافع والتفاعل بينه وبين الواقع الذي هو محل تنزيل النص ومناطه. ولعلنا بذلك نكون قد أسهمنا في وضع معالم تأسيسية لاجتماعيات النص القرآني في أفق التمكين لحاكميته وأصالته وضمان فاعليته وهدايته.